Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 15-16:4-1 (1980-81

العلوم الكونية
واثرها فى تدعيم الايمان

الاستاذ محمد عبدالستار نصار
كلية اصول الدين : جامعة الازهر ،
القاهرة

تمهيد :

تقدمت العلوم التجريبية فى هذا العصر تقدما هائلا وذلك بفضل جهود كثير من العلماء الذين أفرغوا كل مافى وسعهم للوصول الى نتائج جديدة ، كل فى دائرة بحثه .

ولاشك أن هذا الاطراد له أثره على الدين ، ايجابا أو سلبا ويرجع تنوع هذا الأثر الى المنطلق الأساسى ، الذى يبدأ منه الباحث مزاولة تجاربه وأبحاثه ، فالباحث المادى الذى لايؤمن بشىء وراء العالم المحسوس يحاول أن يجذب نتائج بحوثه لتدعيم موقفه المنكر لوجود قوة غير منظورة تدبر أمر هذا الكون .

وهذا ـ لعمرى ـ خطأ جسيم فى منهج البحث لأنه يخرج بالباحث عن دائرة الموضوعية والحيدة ، الى دائرة الذاتية والتعصب .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

ولايقل ـ من حيث المنهج ـ عن هذا الخطأ موقف المتدين الذى يحاول أيضا جذب نتائج تجاربه وبحوثه لتدعيم موقفه المؤمن اذا كان الارتباط بين هذه النتائج وبين الايمان غير واضح ويمكن أن يقال : ان المواقف المعلنة سلفا من قضية الدين هى التى أملت على هذا وذا ك أن يتخذ كل منهما موقفه من القضية .

ترى ؟؟؟ أى موقف يمكن أن يوفّى هذا الموضوع حقه دون أن يميل الى أحد الحدين ؟ فى تصورى أنه الموقف الموضوعى المحايد ، ولا يعترض على هذا بأن الجانب الذاتى فى الدين ـ لدى المعتقد ـ قد لايجعل له سبيلا الى اتخاذ هذا الموقف ذلك لأن استبعاد العواطف والرغبات حين الحكم فى مثل هذه القضية ليس بالأمر العسير ، من ثم سنحاول فى هذا البحث الذى قدمنا له بهذه المقدمة أن نقوم الموقف الرافض للدين والموقف المؤيد له ، فى ضوء براهين كل منهما ، ولن ننسى فى ذلك ، الكشف عن المنطلقات الأساسية لكلا الموقفين ـ وادخالها فى دائرة التقويم أيضا ، وسيظهر ـ كنتيجة للبحث المحايد ـ أن كشف العلم التجريبى للقوانين التى تحكم عالم المادة والوقوف عند هذه الغاية وعجزه عن تعليل حدوث الظواهر الكونية هو فى الوقت نفسه افساح لعقل أن يتحرر ليتلمس علة أخرى غير منظورة لتفسير هذه الظواهر ، تلك التى هى محور الايمان وجوهره

وسنسير فى بحثنا حسب الخطوات التالية :ـ

(١) طبيعة العلم التجريبى ودائرة أحكامه.

(٢) القوانين العلمية من حيث مصدرها.

(٣) وجهة نظر القائلين بالمصادقة فى تفسير الظواهر الكونية.

(٤) القوانين العلمية المحايدة وعلاقتها بالايمان.

(٥) انفراج الأزمة التى اختلقها الملحدون بعد ظهور الأبحاث المحايدة.

(٦) هل يمكن قيام حضارة على علم بلا روح ؟

١ ـ طبيعة العلم التجريبى ودائرة أحكامه :

وظيفة العلم التجريبى هى دراسة العالم المحسوس لاكتشاف القوانين التى تحكم ظواهره والوصول الى هذه الغاية دونه ضروب من التجارب والملاحظات الكثيرة والفروض الأولية ثم النهائية لتفسير الظواهر ووصفها ، وماكان لهذا العلم أن يتجاوز طبيعته هذه والاظهر القصور والعجز فى وظيفته من ثم لايمكن لأى عاقل أن يتصور للعلم وظيفة وراء هذه التى ذكرناها كما أن العلم لايكشف عن كل الحقائق الخفية وراء ظواهر المادة ولكنه يمشى الى غايته رويدا رويدا ولو لم تكن المسألة على هذه الشاكلة لكنا أمام مجموعة غير محصورة من الكشوف العلمية . التى تعبر عن ممارسات الانسان ومزاولته للبحث منذ أصبح أهلا لذلك ولما تردد فى تاريخ البحث العلمى أفكار وملاحظات ومكتشفات . تعفى على آثار السابقين من الباحثين الأمر الذى يبرر فى النهاية أن حقائق العلم لانهائية من حيث قيمتها ، بل هى تفسيرات للظواهر ، ولعل هذا هو مايبرر القول بأن النظرية العلمية ليست الافرضا لم يثبت خطؤه ويؤكد هذا أيضا أن قانون . الاحتمالات ،، والاعتراف بعدم الحتمية فى الطبيعة فى حدود امكانيات الانسان المتاحة لايزال له احترامه فى كثير الدوائر والأكاديميات العلمية .

ونتيجة أولية لما تقدم تبين لنا أن جانب ،،المدرک ،، (بكسرالراء) يلعب دورا خطيرا فى تفسير الظواهر ولذا فان أساطين العلم يقررون أن النظريات التى يتوصل اليها الباحثون فى تفسير بعض الظواهر ليست الاصورا ذهنية لتفسير القوانين الحقيقية التى تحكم هذه الظواهر وربما كان السبب فى ذلک راجعا الى طبيعة الانسان نفسه ، وقدراته المحدودة .

وقد يخلع الباحث على النظرية العلمية شيئا من الأهمية اذا ماشعر بأثرها فى الواقع والحياة ، حتى ولو لم تكن هى التفسير الصحيح أو القريب من الصحيح للظاهرة موضوع البحث ، وهنا يكون للمنفعة دورها المؤثر فى البحث العلمى .

ولعل هذا هو مادعا البروفيسور «سوليفان » الى توجيه نقده الى النظريات العلمية بقوله :

ان النظريات التى نعتبرها اليوم حقيقة ليست الاقياسا على وسائلنا المحدودة للملاحظة ، ولا تزال قضية «الحقيقة » فى ميدان العلم ، قضية عملية نفعية

وكأنى بهذا الباحث يقرر ضمنا : أن العلم من حيث هو ، بعيدا عن هوى الباحثين وبعيدا أيضا عن الحقائق الكامنة خلف عجزه عن تفسير وتعليل كثير من الظواهر التى يدرسها ليس الامنهجا محايدا ، لاعلاقة له بالدين نفيا أو اثباتا ، ويترتب على هذا أن التفسيرات التى يدلى بها أصحابها فى هذا المقام ، ينبغى أن تقبل أو ترد عن بينة حتى يظل لمنهج البحث احترامه .

وتتضح المسألة التى نحن بصددها أكثر اذا حاولنا ترتيب موضوعات العلوم ، بحسب مقوماتها النوعية وتكامل عناصرها ، أننا سنحصل على هذا الترتيب التصاعدى بحيث نرى كل واحد يحتوى على ماقبله ويزيد ، وينقص عما بعده بقدر مافيه من زيادة فى مقوماته ، فالحياة النباتية تستلزم وجود الجسم بأجزائه وجزئياته وعناصره وذراته وطاقاته وتزيد على وجود الأجسام التى لاحياة فيها ، وظائف أخرى هى مقومات الحياة النباتية والحياة الحيوانية ، تحتوى الحياة النباتية بجميع وظائفها ، وتزيد عليها وظائف أخرى هى من مقومات هذه الحياة والحياة الانسانية فيها كل مقومات الحياة الحيوانية وتزيد عليها وظائف هى من خصائص هذه الحياة ، وهذه الوظائف نفسها طبقات بعضها فوق بعض ، أبرزها وأعلاها الوظيفة

الروحيه التى تتطلع الى الحقيقة الكبرى .

ان هذا البيان يحدد لنا طبيعة العلم التجريبى ودائرة أحكامه ، كما يبين الصلة بين هذا العلم وبين العلم الالهى (علم الدين) .

وهذه ، الصلة ليست صلة وحدة فى الموضوع والاشتراك فى الأهداف ، لأن المشاكل التى تعالجها العلوم الكونية الطبيعية ، لايمكن أن تكون هى المشاكل التى تجىء الأديان لمعالجتها ، لأنها انما تبحث فى دائرة الموجود المادى من الكائنات ، وليس هناك علم من العلوم التجريبية . يبحث عن مبدئها الأول وغايتها القصوى . (١)

١ ـ الحقائق المستنبطة :

غير أن العلوم التجريبية كلها يمكن أن تعطى للدين بعدا جديدا ، يمكن فى صمتها عن التعليل الحقيقى لحدوث الظواهر ، وحينئذ تكون وظيفتها وظيفة وسائلية بالنسبة للدين وهى بالاضافة اليه تكون كالمقدمات للنتائج والوسائل للمقاصد ، فكما أن ـ المجهول لايتوصل اليه الا عن طريق المعلوم ، والغائب لايدرك الاعلى ضرب من القياس على الشاهد ، كذلك الحقائق العليا ، لايسهل الصعود اليها الاعلى سلم من الحقائق الدنيا(٢) ، وهذه الحقائق هى موضوع العلوم التجريبية . وما يأخذه الباحث من حقائق عن هذا السبيل انما يكون استنباط من ملاحظاته وتجاربه . فالطبيعة الماثلة أمامنا انما تنعكس صورها على أعين الناظرين ولاتعطى ـ من حيث عملية نقل الصور بلا انفعال ـ سوى انعكاس الواقع على العين ، ولكن اذا تجاوزنا هذه العلمية الى ماوراءها لاستنبطنا دقة النظام المحكم ووجود خطة وتدبير فى الطبيعة ، وهذه بدورها تؤدى الى استنباط وجود منظم لها ضرورة .

واذن فما وراء معطيات العلم من حقائق انما كان نتيجة طبيعية لحدود امكانياته ودائرة أحكامه . ولايستطيع باحث حقيقى أن ينكر ماوراء العالم المادى من حقائق مهما تذرع بالحجج التى يحسبها تؤيد وجهة نظره ، لأن علاقات الانسان من حيث كونه كائنا راقيا أوسع من أن تحد بهذا العالم المادى فقط .

كما أن وجهة النظر التى تعبر عنها حينئذ ، لايمكن أن ترقى الى مستوى الحكم العام ، ووجهات النظر أو الأحكام الخاصة لاتملك سلطة الالزام العام ، لأن طبيعتها ليست كذلك .

٢ ـ القوانين العلمية من حيث مصدرها :

ان القول بآلية حركة الكون ، بمعنى : خضوعه لقانون داخلى ذاتى فى عملياته المتطورة والمتغيرة ، واستبعاد أن يكون محكوما بقوة خارجة عنه ، هذا القول ليس وليد البحوث الحديثة ، التى أفرزتها الاتجاهات المادية فى دراسة الكون والحياة ، والتى بلغت ذروتها فى مباحث «أرنست هيكل » و«جوليان هكسلى » وغيرهما من رواد هذا الاتجاه ، ولكنه يمكن تلمسه فى ظل الحضارات المتعاقبة ، وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح لدى ممثلى المدرسة «الذرية » فى القرن الخامس قبل الميلاد فى بلاداليونان .

وقوام نظريتهم أن كل مايحدث فى العالم من كون أو فساد ، انما يخضع لقانون «المشاكلة » الذى تحتوى عليه المادة ، والوجود والعدم انما يأخذان هذا الوصف بضرب من المجاز ، لأن المادة والخلاء هما أساس الكون . كما أنهما بالضرورة أزليان ، ومرجع الحكم على الأشياء بالوجود أو بالعدم ، انما هو الى الذات العارفة «الحواس » ، واذن فنحن نجزم بوجود الشىء حينما يصير فى حالة نستطيع معها أن نحسه باحدى حواسنا ، ونحكم بانعدامه حينما يصير فى حالة يدق

معها عن تلك الحواس ، وليست الأولى وجودا حقيقيا ، ولا الثانية انعداما حقيقيا ، وانما الأولى اجتماع للذرات عندما تشاكلت ، والحالة الثانية انعدام لها عندما تخالفت ، لأن الموجود لاينعدم والمعدوم لايوجد ، فالوجود لاينتج عدما والعدم لاينتج وجودا .

وفى تأكيد فكرة تقليد المحدثين من أصحاب المنزع المادى لأسلافهم يقول الباحثان : „جانيه „ و „سياى „ : ان الفكرة الإغريقية عن المادة قد وصلت فى عهد „ديمقريطس „ الى ادراك جلى واضح ، اذ هوالذى وضع كل المبادىء العظمى التى تسود علم الطبيعة فى العصور الحديثه ، سيادة آخذة فى النمو ، ومن تلك المبادى التى وضعها ، مبدأ عدم قابلية المادة „للفناء „ ومبدأ „بقاء الطاقة „ ذلك المبدآن اللذان يعبر عنهما فى البيئات العلمية بهذه العبارة : (لم ينشأ شىء من لاشىء ولن ينتهى شىء الى اللاشىء) .

ومنها : ارجاع جميع الظواهر الكونية الى مصدر واحد هو الحركة ، ومنها القول بانفراد القانون „الميكانيكى „ بالسيادة على العالم الطبيعى (٣).

ويلاحظ أن عدوى التقليد والمحاكاة هى التى وقفت بالمحدثين والمعاصرين من أصحاب هذا الاتجاه الميكانيكى . عند التشبث به ، وعدم الا[illegible] لمقتضيات العقل المتحرر والبحث المحايد ، وهذا فى حد ذاته كاف فى الحكم على مؤقف هؤلاء ، وكل ماقدموه من آراء لتقوية موقفهم انما هى مزاعم لاتثبت عند النقد العلمى ، وسنمتحن بأنفسنا هذه المزاعم .

والحق الذى تمليه طبيعة الدراسة الموضوعية ، أن هذه المبادىء لم تأخذ هذا المعنى الافى نظر قائلها ، ومن ثم فهى مرفوضة باسم العلم الحقيقى .

ان مبدأ عدم قابلية المادة للفناء ومبدأ بقاء الطاقة ينتجان بالضرورة أزلية

٣ ـ وجهة نظر القائلين بالمصادفة فى تفسير الظواهر الكونية :

لايمكن أن يكون هناك ما هو أشد غرابة ممن يقولون بالصدفة فى تفسير الكون ذلك لأن قولهم هذا لايمكن أن يقارن بما يقوله المحمومون ومن يعتريهم الخبل العقلى والاضطراب العصبى ، فضلا عن أن يكون كلاما يصدق بأوليات العقل ، أو محصلة التجربة الدقيقة ، ان أبعد الأمور عن القياس وأعمها استحالة هو أن نؤمن بأن الكون وقطيعته الرياضية جاء نتيجة الصدفة».

ولعل مما يزيداستغراب الباحث المتزن أن يصدر هذا القول ممن يشهد لهم بالتفوق فى العلوم الرياضية.

مما يؤكد الأمزجة المتطرفة تلعب دورا خطيرا عندما يمس البحث مسائل تتصل بالعقيدة ، فها هوذا برتراندرسل ، صاحب المباحث المتقدمة فى علوم الرياضة يقرر وجهة نظر الماديين عموما حين يرى أن الانسان وليد عوامل ليست بذات أهداف ، وأن بدأه ونشؤه وأمانيه ومخاوفه ، وحبه كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضى اتفاقى فى نظام الذرة ، وأن القبر ينهى حياة الانسان ، ولاتستطيع أية قوة احياءه مرة أخرى .

ولاشك أن أصحاب هذا القول لن يقتنعوا بالنتائج التى توصل اليها معارضوهم ذلك لأن عقولهم قد أو صدت دون الحقائق العلمية المستنيرة ، التى جاءت ثمرة للعقلية المتحررة ، التى لم تسيطر عليها خرافات وأباطيل أصحاب هذا الاتجاه.

ان وجود الآثار فى غيبة المؤثرات ، ممايرفضه العقل والتجربه معا ، واذن فحاجة الآثار الى عللها وأسبابها مما يدرك بالبداهة ، وأصحاب الاتجاه المادى فى تفسير حركة الكون يعترفون بأنه«لا يوجد شىء من لاشىء » ، وهذا القول شطر

من مبدئهم العام ، الذى أقاموا عليه نظريتهم ، فكيف يصح هذا ادعاؤهم بأن الكون فى وجوده صيرورته خاضع للصدفة ؟.

ان الواقع ـ وهو أقوى الأدلة ـ يشهد برد هذا القول ، ذلك لأن الطبيعة التى يدعون أنها وجدت وتسير حسب تفسيرهم المصادفى ، هى فى نفسها فى حاجة الى تفسير.

ولا يملك العلم ـ مهما تقدمت وسائله وارتقت مباحث العلمـاء سوى تفسير الظواهر بمعنى : وصفها بما تؤدى اليه نتائج التجارب أما تعليلها ، بمعنى معرفة لماذا تحدث الظواهر ، فدون ذلك استحالة واضحة ، ولقد صدق ماقيل فى هذا المقام „ان الطبيعة حقيقة من حقائق الكون ، وليست تفسيرا له „ وما قاله عالم البيولوجيا الأمريكى„سيسل بايس هامان : „ كانت العملية المدهشة فى صيرورة الغذاء جزءا من البدن ، تنسب من قبل الى الاله ، فأصبحت اليوم بالمشاهـدة الجديدة تفاعلا كيميائيا ، فهل أبطل هذا وجود الاله ؟ ان صح هذا فما هى القوة التى أخضعت العناصر الكيميائيه لتصبح تفاعلا مفيدا ؟ ان الغذاء بعد دخوله فى الجسم الانسان يمربمراحل كثيرة خلال نظام دقيق ، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض ، فقد صار حتما علينا أن نؤمن بعد هذه المشاهدات ، بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التى خلق بها الحياة «(٨) „

وقد استطرد هذا الباحث قائلا„ان الطبيعة لاتفسر شيئا من الكون وانما هى ، نفسها بحاجة الى تفسير „ ثم افترض ادارة حوار على هذا الشكل : لو أنك سألت طبيبا:ماالسبب وراء احمرار الدم ؟ لكان الجواب : لأن فى الدم خلايا حمراء حجم كل خليه منها كنسبة ١ : ٧٠٠من البوصة ؟ ، فلو سألته . ولماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟ لكان الجواب : فى هذه الخلايا مادة تسمى„الهميوجلوبين „ وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالاكسوجين فى القلب ، فاذا سألته : ولكن

من أين تأتى هذه الخلايا التى تحمل «الهميوجلوبين » ؟ لأجابك : انها تصنع فى الكبد فاذا سألته وكيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ارتباطا كليا ، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؛ لأجابك : هذا مانسميه بقانون الطبيعة الذى ينظم الحركات الداخلية للقوى الطبيعية والكيميائية ، فاذا سألتـــه ولماذا تهدف هذه القوى دائما الى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها ، حتى تطير بعض الحيوانات فى الهواء ويعيش بعضها فى الماء ، ويعيش الانسان على ظهر الأرض بجميع مالديه من الامكانيات والكفاءات العجيبة المثيـرة ؟ لكان الجـواب : لاتسلنـــى عن هذا فان علمـــى لايتكلـــم الاعن مايحدث « ليس له أن يجيب عن لماذا يحدث » (٩) .

ان ماكشف عنه البحث العلمى فى تطوره وارتقائه من نظم وقوانين تتخلل عناصر الطبيعة يؤكد دحض فكرة المصادفة فى تفسير الظواهر ، حتى ان كثيرا من الباحثين يرون أن القول بهذه الفكرة فيه منـاقضة صريحة للكشـوف العلمية ، ويؤيدون هذا بقانون العناصر الدورية ويرون أنه ليس من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع فى «الطبيعة عبارة ، « الصدفة الدورية » وانما هو القانون الدورى » وليس من الممكن أيضا انكار ماتتطلبه الظوابط والنظم فى الطبيعة من وجود اله مدبر ، ذلك لأن عدم ايمان العلم الحديث بهذا الاله انما هو فى الواقع انكار لكشوفه كنتيجة حتمية .

ان قانون «المصادفة » يفسر بأن حظها من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الامكانيات المتـزاحمة ، فكلمـا قل عدد الأشيـاء ازداد حظ لمصادفة من النجاح وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة (١٠) .

وبناء على هذا فان فرصة خروج عشر قصاصات من الورق كتبت عليها الأعداد من واحد الى عشرة ، من حافظة مغلقة ، بنفس الترتيب انما تجىء بنسبة

واحد الى عشرة بلايين من المحاولات . واذا كان الممكن المتزاحم هنا محصورا فى هذا العدد فما بالنا اذا اتسعت الممكنات ؟ لقد انتهت أبحاث العالم الرياضى السويسرى «تشار لزبوجين» الى أن امكان حدوث الجزء البروتينى عن «الصدفة» يتطلب مادة يزيد مقدارها عن المادة الموجودة الآن فى الكون بليون مرة ، وأما المدة التى يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة فهى أكثر من مائتين وثلاثة وأربعين صفرا توضع أمام الرقم «عشرة» من السنين : ولعل هذا الأمر المعقد هو الذى حمل العالم الأمريكى «كريسى موريس» على القول بأن الهدف من اثارة مسألة «الصدفة» ليس الا أن توضح كيف تتعقد الوقائع بنسبة كبيرة جدا فى مقابل الصدفة ، وان للحياة فوق كوكبنا شروطا جوهرية عديدة .

بحيث يصبح من المحال حسابيا أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة بمجرد المصادفة ذلك لأن أهم ماتنطوى عليه هذه الفكرة هو فقدان التوجيه والتسديد نحو هدف محدد وهذا مايرفضة نظام هذا الكون (١١) .

٤ ـ القوانين العلمية المحايدة وعلاقتها بالايمان :

العلم ادراك مباشر أو غير مباشر لموضوعه وغايته الكشف عن الروابط التى تحكم الظواهر الكونية . والتى تسمى «القوانين العلمية» ومتى وصل الى هذه الغاية يكون قد أدى رسالته المنوطة به . ولكن يبقى وراء ذلك مسألة يدهش منها الباحث ، ملحدا كان أم مؤمنا وهى : التعليل الحقيقى لاحداث الظواهر وأولهما : يفسر دهشته بما يتفق مع هوى نفسه ، وثانيهما : يرجعها الى ماتقره طبيعة الانسان المعتدل ، ذلك لأن الانسان من حيث وقد رود بشعور عميق وقوى ، بأن وراء الوجود المادى وجودا أسمى وأقوى هو الموجود على الحقيقة ،واذا كان فى احقاب التاريخ السحيقة قد تلمسه فى بعض الظواهر الكونية التى شعر منها بما تمده به من وسائل الحياة وطرائق العيش واذا كان هذا التصور خاطئا لدى أصحاب الأديان

الصحيحة المنزلة ، فان هذا الخطأ فى نظرنا لايتجاوز الايمان الى مقابله وهو الا لحاد غير أنه ايمان قد أخطأ موضوعه الصحيح ومن ثم جاءت الأديان السماوية كلها لتصحيح تصور البشر للاله ، ولم تنشىء لديهم ايمانا لم يكن موجودا فى أصل فطرتهم .

ان كثيرا من علماء اللاهوت والنفس يتحدثون عن أصل الغريزة الدينية التى يولد الانسان مزودا بها ، ويقرون أنه فى حاجة ضرورية الى مبدأ دينى أو أخلاقى ليضبط سلوكه اذا أريد له ألاتكون نفسه مسرحا للصراع المحتدم ، والفوضى التعسة ، فعلماء اللاهوت يتكلمون عن «غريزية الدين » بفكرة الميثاق الواردة فى الكتاب المقدسة . التى تظهر بشكل واضح فى القرآن الكريم ، ونفسر بأن الانسان فى مرتبة وجودية سابقة قد تعرف على ربه ، وأقر بذلك .

يشير الى هذا ماجاء فى القرآن الكريم «واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » (١٢) .

وجمهور علماء النفس يقرون هذه الغريزة وان اختلفوا فى تفسيرها ، ولعل أظهر تفسير لها ماقال به كل من : « شيلر ماخر » و « تيليع » من أن أصل الدين من الوجهة النفسية يرجع الى : الادراك النظرى فى الانسان الخاص بالسببية ، والشعور بالتبعية ، والحدس باللانهائى ، وكلام الأول من هذين الباحثين، يكاد ينطق بوحدة وجود ظاهرة اذ يرى أن « اللامتناهى » يوجد فى كل مايحيا ويتحرك ، وفى كل نمو وكينونة ، فى كل عمل ومعاناة ، واننا نمتلك الحياة ، ونعرفها عن طريق احساسنا المباشر بهذا الموجود (١١) .

واذن فوقوف العلم عند حدود تفسير الظواهر دون تعليلها ، يؤدى الى افساح المجال امام العقل لتلمس علة مقبولة ، خارجة عن دائرة الطبيعة موضوع

البحث ، وادراك هذه العلة انما يكون بوسائل غير التى تدرك بها القوانين العلمية، كما أنها لاتخضع فى ادراكها لماتخضع له عناصر الطبيعة .

واذا كان الأمر كذلك فأى قصور يمكن أن توصف به فكرة الماديين الذين يذهبون الى أن صدور الحوادث عن قوانينها تلغى نسبتها الى أسباب فوق الطبيعة .

ذلك لأن القانون لايؤثر فى احداث الظواهر ـ وهذا أمر قدسبق ذكره ـ ولكنه مستنبط منها كنتيجة لها ، وكون النتيجة هى السبب فيه قلب للحقائق ، وهذا مرفوض بأوليات العقل .

ويضاف الى قصور الملحدين وصف آخر أدخل فى مقام الذم من هذا الوصف ، وهو «التعصب» الشديد لما يذهبون اليه وعدم الاكتراث بما يذهب اليه الغير ، ولو كان صحيحا ، ولقد عبر عن موقفهم هذا العالم الانجليزى الشهير «جيمس جينز» حين قال : ان فى عقولنا تعصبًا يرجع التفسير المادى للحقائق «

اختيار بعض القوانين :

العناصر البيولوجية الرئيسية لحياة الكائن الحى هى : الأوكسيجين والهيدروجين وثانى أوكسيدالكربون والكربون ، وتوجد هذه العناصر فى محيط ٧٧ الحياة الأرضية بنسب مضبوطة ،

ويقرر كثير من الباحثين التجريبيين أن العالم ليس لديه ايضاح لهذه الحقيقة ، وقد تأدوا الى حقيقة هامة فى هذا السبيل هى : أن هذا التوازن النسبى بين العناصر لولم يكن على هذه الحالة التى هو عليها الآن لما كانت هناك حياة ،

بكل صورها : الانسانية والحيوانية والنباتية ، فلو أن نسبة الأوكسيجين المقررة فى الغلاف الجوى بمقدار ٢١٪ زادت بما يتجاوز حالتها الراهنة لأدى ذلك الى أن جميع المواد القابلة للاحتراق تصبح عرضة للاشتعال ، حتى انه اذا حدثت شرارة برقية مثلا ، فان ذلك يؤدى الى اشتعال كل ماهو قابل للاحتراق ، وبالتالى لو أن نسبة الأوكسيجين هبطت عن معدلها ، فان الحياة أيضا تصبح مستحيلة على هذه الصورة من الرقى والمدنية ، و اذن ففى اختلال نسبة وجود عنصر واحد مقيسا الى العناصر الأخرى اللازمة للحياة اطاحة بالحياة كلها .

وهذا التناسب بين هذه العناصر هو مايطلق عليه «قانون التوازن بين العناصر» ولسنا فى حاجة الى أن نتوسع كثيرا فى ضرب الأمثلة ، ولكن يكفينا أن نشير هنا الى أن أحد العلماء الاثبات قد أقر بأن العلاقة العجيبة التى بين الأوكسجين وثانى أوكسيد الكربون ، فيما يتعلق بالحياة الحيوانية والنباتية قد استرعت أنظار كل العالم المغربى (١٢) .

وموضع الدهشة هنا يمكن فى العلاقة التبادلية فى الحياتين : الحيوانية والنباتية ، فالأوكسيجين هو قوام الحياة الحيوانية (الانسان والحيوانات) وان أكسيدالكربون هو من مخلفات هذه الحياة ، وهو فى نفس الوقت قوام الحياة النباتية والأوكسيجين من مخلفاتها ، فكأن مابه حياة أحدالطرفين هو من مخلفات الطرف الآخر.

ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة ، فان الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد فى النهاية كلا العنصرين ولا يكون هناك مابه قوام هاتين الحياتين (١٣) .

ان العلماء المتجردين ـ وقد أدهشهم هذا النظام الذى لم يستطيعوا له تفسيرا علميا انما يقرون ـ انطلاقا من هذا الموقف ـ بالروح الكونية المتعالية التى

تدبر أمر هذا الوجود .

حتى قال بعضهم : من الممكن أن نسأل أى رجل . . مؤمنا بالله كان أو منكرا له . أن يثبت كيف يمكن أن يكون هذا التوازن فى صالحة اذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة (١٤) .

وبجانب قانون التناسب بين العناصر ، توجد قوانين أخرى ، لعل أظهرها بالنسبة للحياة مايمكن أن يسمى التوازن بين الكواكب من حيث أبعادها وأحجامها النسبية .

لقد قرر العلم أن الأرض ـ ونخصها بالذكر لأنها الكوكب الذى تظهر فيه حياتنا ـ لو كانت أقل أو أكثر مما هى عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها ، فلو كانت أقل لقلت جاذبيتها تبعا لذلك وتصبح والحالة هذه غير قادرة على امساك الماء والهواء اللازمين لحياة الكائن الحى .

كما هوالحال الآن فى كوكب القمر ، فضلا عن برودتها الفائقة ليلا وحرارتها الفائقة نهارا . مما يؤكد استحالة الحياة .

ولو كان حجمها أكبر مما هى عليه الآن ، الى الضعف مثلا لتضاعفت جاذبيتها ، وتبعا لذلك ينكمش غلافها الجوى ، وهذا بالضرورة يتنافى مع حياة الكائن الحى ، نظرا لتضاعف الضغط الجوى .

وهكذا نرى أنه على أى فرض من الفروض تنعدم الحياة على البسيطة ، وهذا مايقره العلم نفسه ، ولا يملك العلماء أيضا الا الدهشة من هذا النظام العجيب حتى ان بعضهم ليطلق على هذه الظاهرة اسم : ١٩ عجلة التوازن العظمية » (١٥) .

ان كوكبنا ليس ثابتا ، بل يدور بسرعة يبلغ مقدارها ألف ميل فى الساعة ،

ووضعنا عليه أشبه مايكون بحصاة وضعت على محيط عجلة تدور بسرعة ، يوشك أن تقذف بها فى الفضاء ولكن الأرض لا تقذفنا ، بل نحن مستقرون عليها ، فكيف تمسكنا وهى تدور بهذه السرعة . ؟

ان فى الأرض جاذبية غير عادية ، تشد كل شىء اليها ، فهذه الجاذبية مع ضغط الهواء المستمر يمسكاننا فوقها بنسبة معلومة .

لقد كشف « نيوتن » عن قانون الجاذبية ، ولكنه لم يستطع الوصول الى تعليل لهذا القانون ، من ثم وقف عند هذا القدر ، وماكان له أو لمثله أن يتقدم خطوة الى الأمام ليعلل لهذه والظواهر بماهو فوق الطبيعة وفوق قوانينها وبعد أن لوا محصورين فى اطار العالم المادى ، أما أصحاب العقول المتحررة من العلماء فلم يعجزوا عن تعليل مثل هذه الظاهرة وغيرها بوجود روح كونية تسرى فى هذا الوجود ، تعطيه معنى وهدفا ، لقد علق ـ «هوايت هيد » على قانون الجاذبية » الذى كشف عنه نيوتن بقوله : لقد كشف نيوتن حين سلم بهذا عن حقيقة فلسفية عظيمة ، هى أن الطبيعة بغير روح فلن تفسر نفسها ، كما أن الشخص الميت لايستطيع أن يحكى لنا واقعا ، ان جميع التفسيرات الطبيعية والمنطقية لم تزد أخير على أن تكون اظهار الهدف ، لأن الميت لايمكن أن يكون عمل أهداف .

ولايمكن أن توجد هذه الروح المدهشة الا فى ظل سلطان وجود ذى ادراك هو علة هذا الكون (١٦) .

وما ذكرناه ليس أمثلة حاصرة ، ولو شئت اختبار أى قانون علمى على ضوء ماذكرنا فلن يملك الافصاح بلسان المقال عن التعليل الحقيقى لوجود الظواهر ، لأنه لايتجاوز دور الرابطة التى تحكمها ، ولكنه ينطوى على معنى أعمق من القول ، يدركه الباحث المحايد البعيد عن الهوى والتعصب انطلاقا من نفسه

هو ، باعتباره كائنا ، يصعب تفسيره وتحليله من جميع جوانبه فى ضوء معطيات العلم القاصر ، ولقد صدق الى حد بعيد قول «أوسبورن » .

بين جميع الأشياء التى لايمكن ادراكها فى الكون ، يقف الانسان فى الطلعية ، وبين الأشياء التى لايمكن ادراكها فى الانسان تتركز الصعوبة الكبرى فيما له من مخ وذكاء وذاكرة وآمال وقوة كشف وبحث ، وقدرة على تذليل العقبات(١٧).

ومما لاشك أن العلم فى تقدمه واطراده وكشفه عن الجديد ، يصادف كثيرا من المشاكل التى تتمتع على العقل البشرى ، بحكم طبيعته من ناحية ، وبحكم طبيعة الوجود من ناحية أخرى ، مما يؤكد أن الانسان اذا قصر معارفه على ماوصل اليه عقله ، فان فى ذلک استنامة لفكره ووجدانه وروحه ، وأما اذا اعتقد فيما ور اء حدود العقل ـ بناء على طبيعة العقل نفسه ـ فان فى هذا ترقيا لعقله وروحه معا ويتبين لنا من هذا كيف يكون العلم سندا للايمان وتدعيما له .

٥ ـ انفراج الأزمة التى اختلقها الملحدون بعد ظهو ر الأبحاث المحايدة :

فى الاقترا ب من الروح العلمية الحقيقية مايدعو الى التفاؤل بالنسبة للايمان ، ذلک لأن العلم كلما أخذ طريقه نحو غايته ، تكشفت له السنن الكونية بقدر مافى جهد العلماء من محاولات جادة ، ويتأكد فى ثنايا هذا الجهد المبذول أن قانون الظواهر أو بلغة المؤمنين السنن الكونية ليست ذاتية للمادة ويؤكد ذلک ايضا أزمة مبـأ الحتمية اذ لو كانت هذه السننن ذاتية لما أمكن تخلفها ، لأن مابالذات لايتخلف كما يقال ، ولانستطيع تفسير هذه الأزمة بفكرة «المصادفة » بعد أن بينا أن الحياة فى كنفها يفقد أهدافها .

ولقد انفرجت الأزمة التى أحدثتها بعض البحوث التى وقفت بأصحابها عند تخوم عالم الظواهر فى القرن الماضى ، بعد أن ظهر ت الى الوجود مباحث

الاثبات من أساطين العلم فى عصرنا ، حتى ان بعضهم ليصف مباحث الأسلاف ، التى لم تأخذ طريق البحث الصحيح ومن ثم لم تصل بهم الى ادراك الحقيقة الكلية المطلقة الكامنة وراء موضوعات بحوثهم بأنها مباحث فجة ، ولعله يعنى أن هناك روابط قوية بين البحث العلمى الصحيح وبين الايمان .

يقول : «كريسى موريسون » والذين أتيح لهم العلم بالعالم لايحق لهم أن ينظروا نظرة الازدراء الى فجاجة أولئك الذين سبقوهم ، أو الذين لايعرفون الآن الحق كما نراه . بل اننا على العكس من ذلك يجب أن تأخذنا الروعة والدهشة والاجلال لاتفاق البشر فى نواحى العالم على البحث عن الخالق والايمان بوجوده .

أو ليست روح الانسان هى التى تشعر باتصالها بالله ؟ أم نخشى أن نقول بأن الحافز الدينى الذى لايملكه الا الانسان . هو جزء من الكائن الواعى كأية صفة أخرى من خصائصه ؟ » (١٨) .

ونلمح فى الفقرة الأخيرة من النص السابق القول بفطرية التدين » وأنه خاصية من خصائص الانسان ، وهو قول يتمشى مع الفطرة كما سبق أن أشرنا .

وكأن هذا الباحث يقرر أن فى التقاء نتائج البحوث العلمية الجادة مع مطالب النظرة الانسانية مايبرر تدعيم العلم للايمان الواعى ، ان البون شاسع بين أولئك الذين قام ايمانهم على ضرب من المحاكاة والتقليد ، أو من وقف بهم مباحثهم عند منتصف الطريق ، فأصبح ايمانهم مستهدفا من أصحاب الايدلوجيات الملحدة وبين أصحاب الايمان الراسخ ، الذين تأدوا اليه بعد طول المعاناة وبذل الجهد مع كل الطريق التى تصل بهم الى الحقيقة الثابته .

وهل هناك ماهو أجدى على الايمان من وقوف الباحث على أقصى

درجات الطاقة البشرية ليكتشف نفسه عجز العقل البشرى الطلعة عن تعليل كثير من ظواهر الكون ويقر ـ تبعالذلک ـ بالقوة المطلقة والعقل الحكيم ؟ .

ويمكن القول بأن البحوث التى وقفت بأصحابها عنا هذه النتيجة،قدتنوعت حتى شملت كل ألوان المعارف العلمية التجريبية ، من طبيعية ورياضية وبيولوجية وفلكية الى آخره ، وربما كان موقف العالم الرياضى من بين مواقف الباحثين الآخرين أرجع فى هذا المجال ذلک لأن الكون من خلال هذه المباحث يتراءى للناظرين فى اطار من النسب الرياضية ، مما يمكن معه صحة قول الأقدمين : ان الله يهندس ، وان الهندسة تترجم لنا حكمة الله فى مخلوقاته العلوية وعلى السواء.

وممن برع فى هذا المجال «آرثر أدنجتون» الذى قرر فى مباحثه أن تفسير الكون بالحركة الآلية لايسيغه العلم الحديث ، وان الكون أحرى أن يفسر بالنسب الرياضية فى عقل عاقل ، ولكن الانسان هو سر الكون الأكبر ، وهو الذى يدرک هذه النسب ، ويدرک مابين عقله وعقل الكون من علاقة وثيقة ، وأنه اذا جاز للحركة الآلية أن تخلق فى المستقبل انسانا آليا ، فليس مما يجوز فى العقل أن تتخيل ذلک الانسان سائلا عن الحقيقة أو مباليا بأسباب الحق والباطل ولكن هذا الشوق الى الحقيقة هو لب لباب الحياة ، وهو محور الوجود الانسانى ، منذ نجم من صلب هذه الطبيعة : هذا هو الذى يجعل الانسان شيئا مغايرا كل المغايرة لما حوله من الظواهر الطبيعية ويجعله قوة روحية . . . ومتى ارتفعت الصيحة من قلب انسان : فيم كل هذا ؟ لم يكن صالحا لتلک الصيحة أن ننظر الى هذه التجارب التى نتلقاها من حسّنا ونقول : كل هذا هو ذرات وفوضى . بل الأحرى أن نفهم أن كل هذا وراءه روح يستوى الحق فى محرابها ، وتمكن فيها قوابل لتنمية الذات ، بمقدار مافيها من النزوع الى تلبية عناصر الخير والجمال . . » (١٩) .

وليس «أدنجتون» الاواحدا ممن التزموا جادة الحق فى مباحثهم العلمية

فأدى هذا الى تلك النتائج الروحية ، ولا تزال أمثال هذه المباحث تترى فى بلاد الغرب ، على أيدى كثير من المحققين فى عصرنا ، ولعل أظهرهم العالمان الكبيران «كريس موريسون » و«ألكسيس كاريل » ، وجاءت كتابات الأول فى مؤلفه العظيم «الانسان لا يقوم وحده » شاهدة صدق على تدعيم الايمان بمكتشفات العلم . لقد ساق فى هذا المؤلف سبعة أسباب للايمان بالحقيقة الالهية، يعرفها الطبيعيون والرياضيون ولا تستطيع العقول الصحيحة أن تردها الى المصادفة ، لأنها لاتختل أبدا ، مما يدل على التلازم المستمر بين الظواهر وأسبابها فى نطاق الأمور العادية ووقوع هذه الظواهر بمحض المصادفة لا يتجاوز الواحد الى ألوف الملايين كما ذكرنا .

ان « الجينات»التى يتولد منها البشر جميعا اليوم ، لو أمكن وضعها فى حيز ، فلن يتجاوز هذا الحيز حجم «قمع الخياطة » ومع ذلك فان هذه « الجينات » تحتوى على جميع الخصائص الآدبية لملايين البشر ، وكيف يفسر العلم فضلا عن المصادفة ـ انطواء هذه «الجينات » على جميع عوامل الوراثة ، المستقاة من الأسلاف ، مع الاحتفاظ لكل فرد بمقوماته النفسية وهى موجودة فى هذا الحيز الصغير ؟ (٢٠) .

ان هذا الدليل أحد الشواهد التى ساقها هذا العالم الممتاز ، وكلها سيقت لنقض مزاعم المنكرين باسم العلم «للحقيقة الكبرى » وبيان لتهافت هذه الدعوى باسم العلم نفسه ، مما يؤكد أن مباحث المنكرين لم تسلم فى كثير منها من الخيط والتعصب اذا العلم ـ من حيث هو ـ برىء من هذا الانكار والتعطيل الذى يشل العقول ويفقدها شجاعة الاعتقاد ، فاذا جاز له أن ينكر فانما يجوز له ذلك بحجة واحدة : هى أنه يجهل وليس أنه يعلم ، ومن الجهل لامن العلم أن تجعل الجهل مرجعا للوجود من أعلاه الى أدناه ، فليقل «العالم » انه يجهل لأن

الأمر أكبر من أن يعرفه ويحيط بحدوده ، ولكن الأمر الذى لايعرفه ولايحيط بحدوده موجود لاشك فيه » وعدم العلم ليس علما بالعدم كما قال المفكر الاسلامى «ابن تيمية » .

ولعل أطرف ماقيل على لسان «موريسون » فى مقام الرد على المنكرين وان كان الكتاب كله كان ردا على ماجاء فى كتاب «الانسان » يقوم وحده «لجوليان» هكسلى » تلك العبارات التى قال فيها : لقد قال :«هيكل » أعطنى هواء ومواد كيماوية ووقتا وأنا أصنع انسانا ولكنه أعقل وحدات الوراثة «الجينات » وأعقل الحياة نفسها ، لقد كان عليه لو استطاع ـ أن يجد وينظم الذرات غير المرئية ووحدات الوراثه ويمنحها الحياة ، وحتى فى هذه الحالة كانت النتيجة بنسبة واحد إلى ملايين ، انه كان يأتى بوحش لامثيل له ، ولو أنه نجح فى ذلك لقال ان الأمر لم يكن مجرد مصادفة ، ولكن ثمرة عقله ! ! ! حقا ان الله يخلق بعجزاته بأساليب تخفى على الأذهان (٢٢) .

وما كان لهذا العالم أن يتوسع فى السخرية باسم العلم من هؤلاء الأدعياء بعد أن أصاب حقيقة عجزهم ومكان تعجيزهم ، فى حاجتهم الى المادة التى منها يمكن صنع الانسان فى نظرهم ،وعقليتهم عن الجانب الحيوى الذى به ٢٥ تقوم الحياة ، وهل هناك أدعى للعجز والتعجيز من الاحتياج والقصور ؟

والشاهد الآخر من باحثى هذا العصر على صحة انفراج أزمة الانكار المفتعلة هو الطبيب الفرنسى الشهير «ألكسيس كاريل » صاحب كتاب الانسان ذلك المجهول ، والحائز على«جائزة » نوبل عن بحوثه المتقدمة فى عالم«الطب» لقد جعل من الانسان مركزا لدراساته ووضع يده على كثير من المجاهيل التى لايستطيع العلم تعليلها . وجهل العلماء بها أصبح جهلا مطبقا لأن أغلب الأسئلة التى يسائل بها أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى فظل بلا جواب

لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية لاتزال غير معروفة ، فنحن مثلا : لانعرف حتى الآن مع التقدم العلمى الهائل ، الاجابة على أسئلة كثيرة مثل : كيف تتحد جزئيات الموارد الكيماوية لكى تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟ وكيف تقرر „الجينس „ الموجودة فى نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟ . . . .

ماهى طبيعة تكويننا النفسانى والبيولوجى والفسيولوجى ؟ اننا نعرف أن الانسان مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور ، ولكن العلاقات بين الشعور والمخ لاتزال لغزا .

اننا مازلنا بعيدين جدا عن معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمى والعضلات ووجود النشاط العقلمى والروحى ، وما زلنا نجهل العوامل التى تحدث التوازن العصبى ومقاومة التعب والكفاح ضد الأمراض . . . .
اننا لانستطيع أن نهب أى فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية . . . الخ

ويتابع عالمنا الكشف عن هذه المساير ، وينتهى الى الحقيقة الرائعة . وهى أن جميع ماحققه العلماء من تقدم بالنسبة للانسان من حيث دراسته ٢٦ لايزال غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب (٢٣) .

أجـل ! ! ! ان الانسان على ضآلة حجمه بالنسبة لكثير من الموجودات الأخرى سيظل مستودع الأسرار . وان المساتير كلها قد انتهت اليه ؟ ولقد صدق ماقيل فيه :

وتزعـم أنك جـــرم صغيـر
وفيك انتهى العالم الأكبر

وحسب هذا الباحث الفذ أن يقرر فى اطمئنان أن مصير الحضارة معقود بنواصى الانسان متى عرف نفسه (٢٤) .

ومن محاولاته سيشعر بالعجز التام ازاء كثير من العلاقات التى تحكم كينونته وتركيبه وسيكون هذا خطوة للاعتراف بماوراء عالمه من قوة مدبرة ، ويد صناع ، مجالها الايمان ، والايمان وحده ، وليس الحس أو العقل أوكلاهما .

٦ ـ هل يمكن قيام حضارة على علم بلا روح ؟ :

الحضارة فى أدق تصورها انعكاس لمطالب الانسان من حيث هو . ولما كانت هذه المطالب أوسع من أن تحد باحتياجاته المادية ، فان أشواقه الروحية لابد أن تكون داخله فى المركب الحضارى للانسان ، وتكون العلاقة بينها وبين المطالب الأخرى أو النماذج المكونة لهذا المركب علاقة ترابطية ، من ثم نرى أن أية حضارة أغفلت جانبا ضروريا للانسان قد حكمت على نفسها بالانهيار . وحينئذ يظهر لكل دارس بأدنى جهد ـ بناء على هذه القاعدة ـ أسباب قيام وسقوط الحضارات وكذلك تقسيمها الى ديننا وعِلْمنا وغير ذلك من التفريعات التى يراها مؤرخو التطور الانسانى .

ويهمنا الاجابة على السؤال الذى طرحناه كعنوان جانبى لهذا المبحث ، على مستوين .

أحدهما : نظرى والآخر واقعى تطبيقى.

فأما على المستوى النظرى فان الانسان ليس ذلك الكيان المادى الذى يشغل حيّزا من الفراغ فحسب ، ولكنه مزيج من المادية والروحية معا ، وليس لنا أن نقرر أكثر من هذا بعد مابيناه من مباحث سلفت ، واذا كان العلم قد تكفل

باشباع الجانب المادى فيه ، وذلک باكتشاف مايلائم حاجاته ومايحفظ عليه كيانه هذا ، فان الجانب الآخر فيه هو أيضا فى حاجة الى أشباع ، وليس من سبيل الى هذا الاشباع الابالدين الصحيح الذى يملأ على الانسان كيانه الروحى .

وأداء هذه المطالب فى جانبيها : المادى والروحى بالنسب اللازمة ، هو الذى يحفظ على الانسان حيويته ونشاطه بكل أبعادهما ، وما يقال على الانسان الفرد يقال أيضا على المجتمع ، وفى تصورى أن أى رأى فى دراسة الحضارات ، يتجاوز هذه القاعدة لايعبر الا عن نزعة خاصة أو تصور ذاتى ، وليس مرتكزا على ٢٨ كيان الانسان من حيث هو كينونة متعددة النزعات . وأن عامل احتفاظها يمكن فى المعادلة النسبية بين هذه النزعات .

ومن أظهر الباحثين المعاصرين الذين لهم رأى مرموق فى قيام الحضارات وانحلالها المؤرخ الانجليزى أرنولد توينبى ، وهو يذهب الى أن انحلال الحضارات يرافقه فساد يدب فى أرواح الناس ، وتغيير جذرى يطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلها ، ويحل محل الصفات الباهرة والقوى المبدعة ، التى كانت تزخربها ذواتهم فى دور النمو الحضارى ، ثنائية من النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة . . . .

وفى هذا الدور يتعرى الفساد الروحى عن فوضوية فى الأخلاق ، وانحطاط بسود الآداب والفنون (٢٥)

ويبدو أن هذا المؤرخ قد حدد العلاقة بين الجانب المادى والجانب الروحى فى كيان الانسان ، ولكنه يرى أن التردى فى الناحية الأولى يتبعه ـ كنتيجة السقوط فى الناحية الأخرى وهذا فى تصورى تجاوز فى تقدير كل من الكيان المادى الروحى وأثر كل منهما فى قيام أو سقوط الحضارة ، اذ الحقيقة التى

لايمكن للعقل أن يردها أن الجانب الروحى فى الانسان هو السبب الحقيقى لما وراءه من حيوية أو خمول ، ويؤكد هذا ، مانطق به القرآن الكريم ، وقضاياه حاسمة فى كل قضية يتعرض لها ، لأنه الكتاب الوحيد الذى يكاد يتم اجماع الباحثين الأثبات ، فى الغرب والشرق على السواء على صحة نسبته الى الله سبحانه وتعالى ، خالق الانسان ، والعالم بكل أسراره التى تخفى علينا ، يقول الله فى ذلك : ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٢٦) » . ويقول أيضا : قد مكرالذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون (٢٧) » .

ومعلوم أن تغيير مابالنفس ـ ايجابا أو سلبا ـ أمر يسبق معانيه نتائجه ، كما هو صريح هذين الشاهدين ، والشواهد الأخرى فى القرآن الكريم .

تلك سنة تكشف عن طبيعة العلاقة بين الجانب المادى والروحى فى الانسان ولا نملك ردها ، لأن صدقها أمر مقرر ـ بحكم مخلوقية الانسان لله ـ كما أن الواقع يؤيدها .

وأما على المستوى التطبيقى ، فان الواقع الذى يعانى منه العالم الغربى المعاصر مع الاطراد الهائل فى الانماط الحضارية التى هى وليدة التقدم العلمى ، لأكبر شاهد على مانقول .

ان العلم فى ظل هذه الحضارة جعل الانسان عبدا للآلة بدلا من أن يكون سيدالها ، ومقهورا تحت وطأة الميكانيكية التى تجتاح كيانه الروحى ، واذن فشقاء الانسان الغربى المعاصر قد جاءه من حيث ظن أنه سيسعد ، و الا فكيف نفسر تلك الظواهر الشاذة فى سلوكه ؟

انها تعبير عن تمزقة الداخلى . سببه أنه تمسك ببعض الحقيقة وفقد

أكثرها ، لقد وقف عند ظاهرها المادى ، فأحست نفسه بالقلق والتمزق ، انه اكتفى بالعلم والعقل والمادة ، ولايشكل هذا كله الاجناحا واحدا لطائر مكسور الجناح الآخر (٢٨) .

ان فى أعماق انسان اليوم فراغ موحش ، لايمكن أن تملأه حضارة مادية وسوف لايكف الانسان عن هذا النداء الداخلى ، ولاسبيل الى الاجابة الصحيحة الا بملء روحه بالدين الصحيح ذلك الدين الذى تقدم للاجابة على ماعجز العلم عن تفسيره ، من مشاكل المبدأ والمصير والغاية ، لأنها حقائق فوق طاقته ، اذ هى من عالم مغاير ، كما أنها فوق طاقة العقل ، والالما تعددت اجابات الفلاسفة على هذه الأسئلة :

من أين ؟ والى أين ؟ ولم ؟

ان انسان العصر ـ وبخاصة فى البلاد الغربية على الرغم مماله من فلسفات نقدية ، وتخصص علمى ، يجد نفسه فى ورطة ، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق له مثيل ، لكنه قد سلبه ايمانه فى مصيره هو ، ان نشاطه المادى والعقلى جعله يكف عن توجيه روحه الى الحياة الروحانية الكاملة . التى تتغلغل فى أعماق النفس ، فهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه وفى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره ويجد نفسه أيضا غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وقد استغرق فى الواقع الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية ، ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه ، والذى أدركه أحد زعماء الاتجاه المادى «هكسلى» وأعلن سخطه عليه (٢٩) .

ان حضارة اليوم اذا ظلت فى اتجاهها ، لن تكون أسعد حظا من تلك

الحضارات التى عاشت الأم السابقة فى ظلها ، من تطبيق سنة الله الكونية ، وهى الأخذ بالذنب نتيجة الادبار عن الايمان الصحيح بالله ، ايمانا يستأهل به الانسان معنى الخلافة فى الأرض .

«وعدالله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » (٣٠) .

واذن ففى الايمان بالله وعمل الصالح ، تمكين فى الأرض لتعميرها على أساس من الاذعان لسنة الله الكونية ، وفى المقابل نرى صورة الحضارات المتداعية ، التى لم تقم على أساس من الايمان بالله ، : قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (٣١) .

فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٣٢) .

ان ماتفرزه الحضارة المادية ليس من طبيعته الاستقرار ـ بحكم سنن الله الكونية وكما هو ظاهر فى التاريخ ، وأنه ليعز على السماء والأرض ـ فضلا عن الانسان العاقل أن يذرفا الدمع على سقوط حضارة من هذه الحضارات أو يفرحا بقيام اخرى ، طالما أنها لم تقم على أساس صحيح ، لأن ماجاز على أحد المثلين يجوز على الآخر : «كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وماكانوا منظرين » (٣٣) .

صدق الله العظيم

(بعـــــــد)

فلا نملك ـ فى نهاية المطاف ـ الاالقول بأن المباحث العلمية اذ أخذت طريقها الصحيح فلن تكون الانقـلت بالانسان من مقام الايمان التقليدى الـى الايمان الواعى ، كما أن ماوصل اليه العلم وماسيصل اليه ، انما هو سعى فى مدارج الحقيقة الكبرى ، وصدق الله العظيم اذ يقول :

„سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولـم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد „ (٣٤) .

★★★★★★★

المـــــراجع

(١) د : محمد عبدالله دراز : الدين ص ٧٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) د محمد غلاب : الفلسفة الافريقية ج ١ ص ١١٣.

(٤) انظر التفصيل : ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، نمط الوجود وعلله.

(٥) تهاف الفلاسفة ص ٢٣٧.

(٦) نفس المصـــدر.

(٧) فرانک ألن : نشأة العالم هل هو مصادفة ص ٦ من كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم ».

(٨) وحيدالدين خان : الاسلام يتحدى ص ٤٢.

(٩) نفس المصدر ص ٤٤.

(١٠) نديم الجمر . قصة الايمان ص ٢٩٣.

(١١) العلم يدعو للايمان ص ٥١.

(١٢) سورة الأعراف آية ١٧٢.

(١٣) د : محمد كمال جعفر : فى الدين المقارن ص ٣٤ ، ٣٥.

(١٤) كريسى موريسون : العلم يدعو للايمان ص ٧٠.

(١٥) نفس المصدر.

(١٦) الاسلام يتحدى ص ٨٤.

(١٧) نفس المصدر.

(١٨) نفس المصدر ص

(١٩) العلم يدعو للايمان ص ٤٦.

(٢٠) العلم يدعو للايمان ص ٢٠٢.

(٢١) عباس العقاد : الله ـ ص ٢٨٨.

(٢٢) العلم يدعو للايمان ص ١٣٩.

(٢٣) عباس العقاد : الله ص ٢٩١.

(٢٤) العلم يدعو للايمان ص ١٥٠.

(٢٥) الانسان ذلک المجهول ص ١٨.

(٢٦) نفس المصدر ص ٣٥٩.

(٢٧) د . عمادالدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ ص ٨٧.

(٢٨) سورة الرعد : آية ١١.

(٢٩) سورة النحل : آية ٢٦.

(٣٠) أنورالجندى ـ سقوط العلمانية ص ١٢٠.

(٣١) د : محمد اقبال ـ تجديد الفكر الدينى فى الاسلام ص ٢١٤.

(٣٢) سورة النور : آية ٥٥.

(٣٣) سورة آل عمرآن : آية ١٣٧.

(٣٤) سورة العنكبوت آية ٤٠.

(٣٥) الجاثية الآيات من ٢٥ ـ ٢٩.

(٣٦) سورة فصلت آية ٥٣.

★★★★★★★

(أهــم المـــراجع)

١ ـ القـــرآن الكـــريم :

(١)	الاسلام يتحـدى	وحيد الدين خان
(٢)	العلم يدعو للايمان	كريس موريســون
(٣)	قصــة الايمان	نديــم الجمــر
(٤)	الديـــن	د /محمد عبدالله دراز
(٥)	فى الدين المقارن	د /محمد كمال جعفـــر
(٦)	كتاب «اللـــه»	عباس محمود العقاد
(٧)	الله يتجلى فى عصر العلم	مجموعة من الباحـثين
(٨)	سقوط العلمانية	أنـــور الجــندى
(٩)	الفلسفة الافريقية	د /محمد غــــلاب
(١٠)	تهافت الفلاسفة	أبوحامد الغــزالى
(١١)	الاشارات والتنبيهات	ابن سيـــنا
(١٢)	المنطق الحديث ومناهج البحث	د /محمود قاســم
(١٣)	نحن والحضارة الغربية	ابوالأعلى المــودودى
(١٤)	التفسير الاسلامى للتاريخ	د /عمادالدين خليل
(١٥)	تجديد التفكير الدينى فى الاسلام	د /محمد اقبــال

****

تصحيح الاغلاط

فى عددنا الماضى المؤرخ فى رمضان ١٤٠٠هـ وقعت بعض اغلاط الطبع فالمرجو من القراء أن يصححوها وهى كمايلى :

صفحة	سطر	غلط	صحيح
٨	١٤	باعوه رجلا من اهل مكة	باعوه من رجل من أهل مكة.
١٩	١١-١٢	العهد التقديم	العهد القديم
٢٤	١٣	ومنهم سابق	ومنهم مقتصد ومنهم سابق